الفصـــل الأول

المقسم بـه

مـــنذ عهد الصحابة ، جذبت أقسام القرآن الأنظار ، بسبب كثرتها وغرابتها وخروجها عن المعتاد.

وكـــان مـــن أقدم ما أثار انتباهم وعجبهم الإقســـــام بغير الله. فقد نهى الـــنبى ﷺ المسلمين عن الحلف بغيره فى قـــــوله : « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت[1] ».

وقـــد قـــنع جمهور المسلمين الأولين ـــ فى تصورى ـــ بتسليم الأمر فى هذه الأقســـــام إلى الله ، ذلك الموقف الذى عبر عنه عامر بن شـــــراحيل الشعبى (١٩ ـــ ١٠٣/ ٦٤٠ ـــ ٧٢١) وغيره ـــ فيما بعد ـــ بالقول : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق[2] .

---

(١) القـــرطبى ٦ / ٧١ . ابن القيم ١/ ٥٧ . الشوكانى ٣/ ١٤٠ . المنار ٧/ ٤٠ . الفراهى ٤ . القاضـــى ٨٥ . رضـــا ١٦٧ . إسماعيل ٣٦٦ . وانظر القطان ٣٠٣ . أمين ٢٤٠ . شحاتة ٢٧٣ .

(٢) ابن كثير ٤ / ٢٦٣ .

ونســـبه إلى الحسن بن يسار البصرى (٢١ ـــ ١١٠ / ٤٦٢ ـــ ٧٢٨) معترك ١/ ٤٥١ . الإتقـــان ١٧٠/٢ . الشـــوكانى ٣/ ١٤٠ ، ٤٤٥/٥ . القطان ٣٠٣ . القاضى ٨٥ . المدخل ٥٠٤/١ . العمرى ٢٤٦ . قمحاوى ٣/ ٢٤ . رضا ١٦٧ .

وإلى محمـــد بن على الباقر (٥٧ ـــ ١١٤ / ٦٧٦ ـــ ٧٣٢) وابنه جعفر (٨٠ ـــ ١٤٨/ ٦٩٩ ـــ ٧٦٥) : الطوسى ٩/ ٣٧٧ ، ١٠/ ٢٥١ . الطبرسى ٢٧ / ٧ ، ٢٢/٣٠ . =

وإذا تتبعنا هذه الأقسام ، وجدنا فيها الأضرب التاليـــة :

أ ـ الحروف المفـــــردة

تكشـــف النصوص التى تجمعت لدىّ أن أول ما أثار الانتباه ظاهرة بدء عدد مـــن السور بحروف مفردة، عدها كثير من العلماء أقساما ، كما نرى فى قول عبد العظـــيم بن عبد الواحد المعروف بابن أبى الإصبع (٥٩٥ ــ ٦٥٤ / ١١٩٨ ــ ١٢٥٦) : تـــبين أن الحـــروف المقـــطعة أقسام ، وذلك لمطابقة الفواتح المفتتحة بالأقسام لها فى معانيها [١].

وقد أعطانا فخر الدين محمد بن عمر الرازى (٥٤٤ ــ ٦٠٦ / ١١٥٠ ــ ١٢١٠) إحصـــائيتين تتعلقان بهذه الحروف وغيرها من الأقسام. كشف فى الأولى مـــنهما عـــن مواضـــعها فى المصـــحف، فذكر أن القسم بالحروف وقع فى نصفى المصـــحف جميعـــا، بل فى كل سُبع. أما بالأشياء المعدودة فلم يوجد إلا فى النصف الأخـــير بـــل لم يوجد إلا فى السبع الأخير، غير قَسم واحد هو " والصافات " . وعـــلل ذلك بأن القسم بالحروف لم ينفك عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل

= وأورده غير منسوب : الطبرى ١١/١٩ . الطوسى ٤٤١/٨ ، ٩/ ٣٩٩، ٤١٨، ٥٠٦، ٣١٢/١٠ . الطبرسى ٢٣ / ٤٨ . القرطبى ٦١/١٦ .

الشوكانى ٣/ ١٤٠ ، ٥/ ٤٥٥ . الآلوسى ٢٣ / ٦٧ . الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٧ ــ ٨ . أمين ٢٤٠ . شحاتة ٢٧٣ . دفتردار ٢٨٢ . إسماعيل ٣٦٦ .

(١) الخواطـــــــر ١١٠ .

بعده إلا نادرا . ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف ، وجد ذلك عاما فى جميع المواضع ، ولا كذلك القسم بالأشياء المعدودة [1].

وكشف فى الثانية أن الله أقسم بالحروف فى أول ثمان وعشرين سورة ، وبالأشياء التى عددها عدد الحروف فى أربع عشرة سورة ، لأن القسم بالأمور غير الحروف وقع فى أوائل السور وفى أثنائها، والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن إلا فى أوائل السور، لأن ذكر ما لا يفهم معناه فى أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخلّ بالفهم. ولما كان القسم بالأشياء له موضعان، والقسم بالحروف له موضع واحد ، جعل القسم بالأشياء فى أوائل السور على نصف القسم بالحروف فى أوائلها [2].

ولما كنت قد أعطيت الحروف المقتطعة كتابا مستقلا ، فإننى أكتفى بهذه الإشارة المبتسرة ، إعلاما بمكانها هنا .

ب ـ ما اتصل بمحمد

١ ـ عمره

وكان من أقدم ما أثار الانتباه ، وأدى إلى اختلاف كثير ، القسم فى الآية ٧٢ من سورة الحجر ، الذى ورد فى أثناء سرد أخبار لوط ـ عليه السلام ـ ويقول : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ بسب إيمان العلماء بأن القسم يدل على الإعزاز.

وكان من أول من تصدى لتفسير الآية عبد الله بن عباس (٣ ق ٠هـ ـ ٦٨/ ٦١٩ ـ ٦٨٧) الذى رأى أن هذا القسم هو بحياة النبى ﷺ وعقب على

---

(١) مفاتيح ٢٨ / ١٢٧ .

(٢) مفاتيح ٢٨/ ١٢٧ .

ذلـــك قائلا : ما خـــــلق الله ، وما ذرأ ، وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ. وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره [1].

ولكـــن أبا نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى (٥١٤/١١٢٠) أعلن فى تفســـيره : يحـــتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط ، أى كانوا فى سكرتهم يعمهون. وقيل : لما وعظ لوط قومه وقال : هؤلاء بناتى، قالت الملائكة : يالوط : لعمرك إنهم فى سكرتهم يعمهون . ولا يدرون ما يحل بهم صباحا [2].

ورجَـــح هذا الاحتمال لدى جـــار الله محمود بن عمر الزمخشـــــــــرى (٤٦٧ــ٥٣٨/ ١٠٧٥ ــ ١١٤٤) ففســـر بـــه الآية . ثم أعقب هـــذا التفسير بقوله : وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ وإنه أقسم بحياته [3].

واستبعد عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية (٤٨١ ــ ٥٤٢/ ١٠٨٨ــ ١١٤٤) تفسير ابن عباس، لأنه يقطع القسم مما قبله وما بعده من السياق[4] .

---

(١) الطبرى ٣٠/١٤ . البغوى ٣/ ٣٨٧ . الطبرسى ٣٧/١٤ . أبو حيان ٥/ ٤٦٢ . ابـــن كثير ٢/ ٦٠١ . معـــترك ١/ ٤٥١ . الإتقـــان ٢/ ١٧٠ . الآلوسى ١٤/ ٧٢ . القاضى ٨٦ . المدخـــل ١/ ٥٠٤ . قمحـــاوى ٣/ ٢٤ . العمرى ٢٤٦ . رضا ١٦٨ . إسماعيل ٣٦٥ . واقتصـــر عـــلى الشق الثانى من القول منسوبا إلى ابن عباس : ابن عطية ٣٣٨/٨ . الـــرازى ١٦١/١٩ . ومنســـوبا إلى أبى الجـــوزاء أوس بن عبد الله الربعى (٨٣/ ٧٠٢) : القرطبى ١٠/ ٣٩. الشوكانى ٣/ ١٤٠ . وإلى الرجلين معا : أبو حيان ٥/ ٤٦٢ . وغير منســـوب : الزمخشرى ٢/ ٥٨٦ . الشوكانى ٣/ ١٤٠ .

ووافـــق عـــلى أن القســـم بحياة محمد : الزركشى ٣/ ٤٢ . حسين ٤٥ . بدوى ١٧٠ . الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٦ . شحاتة ٢٨٠ . خليف ٩٦ . إسماعيل ٣٦٤ ــ ٥ .

(٢) القـــرطبى ٤٠/١٠ . وذكـــر أن القسم قد يكون بحياة لوط : الزمخشرى ٢/ ٥٨٥ . الرازى ١٦١/١٩. أبو حيان ٥/ ٤٦٢ . الآلوسى ١٤/ ٧٢ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٨٥ ــ ٦ . الشوكانى ٣/ ١٤٠ .

(٤) أبو حيان ٥/ ٤٦٢ .

وعلى الرغم من أن القاضى أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابـــن العربى (٤٦٨ــ٥٤٣ / ١٠٧٦ ــ ١١٤٨) قــال : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله هاهنا بحياة محمد ﷺ فإنه لم يمنع التفسير الآخر ، وصرح : ما الذى يمنع أن يقسم الله بحياة لوط ، ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله للوط من فضل، يؤتـــى ضـــعفية من شرف لمحمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه ؟ أو لا ترى أنه ــ سبحانه ــ أعطى إبراهيم الخلة، وموسى التكليم ، وأعطى ذلك لمحمد ؟ فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع . ولا يُخرَج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر [١] .

واستحســـن محمد بن أحمد القرطبى (١٢٧٣/٦٧١) قول ابن العربى ، لأنه رأى أن تفسير ابن عباس يجعل القسم بحياة محمد كلاما معترضا فى قصة لوط [٢].

ورفـــض شـــهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسى (١٢١٧ــ ١٢٧٠/ ١٨٠٢ ــ ١٨٥٤) ما رواه الزمخشرى ، لأنه ــ فى رأيه ، مع مخالفته للمأثور ــ محتاج لتقدير القول ، أى قالت الملائكة للوط. وهو خلاف الأصل، وإن كان سياق القصـــة شاهدا وقرينة عليه . فلا يرد عليه ما قاله صاحب الفرائد من أنه تقدير من غـــير ضرورة. ولو ارتكب مثله ، لأمكن إخراج كل نص عن معناه بتقدير شىء ، فيرتفع الوثوق بما فى النص [٣] .

وأعـــلن د٠ يوســـف خليف أن القسم بالنبى ﷺ ورد فى موضع واحد، هو ســـورة الحجر[٤] ، وهو ما اتفق عليه جمهور المفسرين . وانفرد الزمخشرى بالقول بأنه قسم بحياة لوط .

---

(١) القرطبى ١٠/ ٣٩ ــ ٤٠ . الشوكانى ٣/ ١٤٠ .

(٢) الجامع ١٠ / ٤٠ . الشوكانى ٣/ ١٤٠ .

(٣) روح ١٤ / ٧٢ .

(٤) دراسات ٩٨ . وأتى به غير منسوب : إسماعيل ٣٦٥ .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن القسم بالرسول ــ ص ــ ورد فى موضعين آخرين، فى أول سورتى طه ويس ، وكلتاهما مكية . ولكن أكثر المفسرين على أن طه ويس من الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور[1] .

وقــد رأينا ابن عباس يعلل القسم بحياة محمد بأنه لا يوجد من هو أكرم على الله منه .

وذهــب الزمخشرى إلى أن الإقسام بحياة النبى كرامة له [2]. وعده ابن عطية تشريفا [3]، والرازى تكريما[4] ، والقرطبى نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف[5]، وابن كثير تشريفا عظيما، ومقاما رفيعا، وجاها عريضا[6] .

وعلل الزركشى هذا القسم بتعريف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه[7]، ود. أحمد أحمد بدوى بتشريف حياة الرسول، وتعظيم أمره فى عيون السامعين[8] .

---

(1) دراسات ٩٨ .

(2) الكشاف ٢/ ٥٨٦ . الشوكانى ٣/ ١٤٠ . وأتى به دون نسبة : العمرى ٢٤٦ .

(3) المحرر ٨/ ٣٣٨ . وانظر القرطبى ١٠/ ٣٩ . ابن كثير ٢/ ٦٠١ . الشوكانى ٣/ ١٤٠ .

(4) مفاتيح ١٩/ ١٦١ . الرازى لعبد الحميد ٢٥٣ ــ ٤ . وانظر أبو حيان ٥/ ٤٦٢ .

(5) الجامع ١٠ / ٣٩ .

(6) التفسير ٢/ ٦٠١ .

(7) البرهان ٣/ ٤٢ . وأتى به منسوبا إلى بعض العلماء : معترك ١/ ٤٥١ . الإتقان ٢/ ١٧٠ . حمودة ٢٣ . القاضى ٨٥ ــ ٦ . شحاتة ٢٨٠ . المدخل ١/ ٥٠٤ . قمحاوى ٣/ ٢٤ . وأهمل نسبته الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٦ .

(8) من بلاغة ١٧٠ .

وتبين لنا هذه الجولة أن العلماء انقسموا فريقين : جمهور رأى أن القسم بحياة محمـــد، وأقلية رجحت أن يكون القسم بحياة لوط، وأن د. يوسف خليف لم يوفق حين صرح بأن الزمخشرى انفرد بالرأى الأخير.

وتـــبين أن من ذهبوا إلى أن القسم بحياة محمد إنما عز عليهم أن يوهب لوط شـــرف الإقسام بحياته دون محمد، وأنهم تغاضوا عن سياق الآيات، بدعوى وقوع التفات فيها. وغفلوا عن أن تكريم أحد الأنبياء لا ينتقص من مكانة بقيتهم.

وتـــبين أن مـــن ذهبوا هذا المذهب، أفاضوا فى الحديث عما يسبغه عليه هذا القســـم من شرف، وبخاصة قول الزركشى الذى أشاعه السيوطى، فرددته الكتب بعـــده ؛ عـــلى حـــين عنى أصحاب الرأى الآخر بالدفاع عنه، وكادوا يهملون التشريف.

كذلك لم يوفق د. يوسف خليف فى القول بأن أكثر المفسرين يرون أن طه ويـــس مجـــرد حروف مقطعة . ويمكن للقارئ أن يعرف المزيد عن هذه الحروف بالرجوع إلى كتابنا عنها .

٢ ـ ربـــــــه

والـــتفت الطوسى إلى القسم برب محمد فى قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [١] ودلالته ، فقال : فى ذلك تشريف للنبى ﷺ [٢]. وتنبيه على عظم منزلته عنده [٣].

وأيده الزمخشرى فذكر أن فى إقسام الله باسمه ـــ تقدست أسماؤه ـــ مضافا إلى رســـول الله ﷺ تفخـــيما لشأن رسول الله [٤]، ورفعا منه [٥]، كما رفع من شأن السماء والأرض فى قوله : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [٦].

وصـــرح صاحب تفسير المنار : أقسم الله بربوبيته لرسوله، مخاطبا له فى ذلك خطاب التكريم . ومن المعهود فى اللغة أن مثل هذا القسم يعد تكريما [٧].

---

(١) سورة مريم ٦٨ .

(٢) التبيان ١٤ / ٣٥٥ . وأتى به دون نسبة : الطبرسى ١٤/ ٤٥ .

(٣) التبيان ١٤ /٣٥٥ . وأتى به دون نسبة : الطبرسى ١٤ / ٤٥ .

(٤) الكشاف ٣/ ٣٣ . وأتى به دون نسبة : الرازى ٢١ / ٢٠٦ . الآلوسى ١٦/ ١١٨ . وانظر أبو حيان ٣/ ٢٨٤ .

(٥) مثـــــــله .

(٦) سورة الذاريات ٢٣ .

(٧) ٥ / ٢٣٦ .

وصـــرح محمـــد بـــن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ ــ ٧٥١/ ١٢٩٢ ــ ١٣٥٠) : أمـــر الله نـــبيه أن يقســـم به على الجزاء والمعاد فى ثلاث آيـــات. فقال فى الآية الثالثة والخمسين من سورة يونس : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُـــلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ وفى الآية الثالثة من سبأ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وفى الآية السابعة من التغابن : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [١]. وأضاف عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمـــر المعـــروف بابن كثير (٧٠١ ــ ٧٧٤ / ١٣٠٢ ــ ١٣٧٣) أنهن آيات ثلاث لا رابعة لهن [٢] .

٣ ـ محمد وحياته وخيله

وقـــال ابن العربي : أقسم الله بمحمد فقال : ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ وأقسم بحياته فقال : ﴿لَعَمْرُكَ ....﴾ وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار من الحجر فقال : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ....﴾ الآيات الخمس[٣] .

٤ ـ زمانه ومكانه وعمره

وقال الرازى تعليقا على القسم فى سورة العصر: أقسم تعالى بزمان ﴿عصر﴾ محمد فى هذه الآية ، وبمكانه فى سورة البلد ، وبعمره فى قوله : ﴿لَعَمْرُكَ ....﴾[٤].

---

(١) التبيان ١/ ٥٢ ، ٦٤ . وانظر ابن كثير ٣/٥٤٨ ، ٤ / ٣٩٧ . إسماعيل ٥٦٤ ــ ٥ .

(٢) التفسير ٣ / ٥٤٨ .

(٣) القرطبى ٢٠ / ١٥٤ .

(٤) مفاتيـــح ٣٢ / ٨٢ .

ج ـ الأشـــــياء

١ ـ لذاتهـــا

ومـــن أقـــدم ما تعرض له العلماء أيضا محاولة تبرير الإقسام بالأشياء، تلك المحاولة التي أثمرت لنا ثروة من الأقوال التي لا تزال تتزايد إلى اليوم .

نقـــل الفضل بن الحسن الطبرسي (٥٤٨ / ١١٥٣) عن مجاهد بن جبر (٢١ ــ ١٠٤/ ٦٤٢ ــ ٧٢٢) ومحمـــد بن السائب الكلبي (١٤٦ / ٧٦٣) أن الله أقســـم بالطور لما أودع فيه من أنواع نعمه [١]. واتفق معه شهاب الدين محمود ابـــن عبد الله الآلوسي (١٢١٧ ــ ١٢٧٠/١٨٠٢ ــ ١٨٥٤) الذي علق على القسم بالعصر قائلا: كأنه ــ تعالى ــ يذكر بالقسم به ما فيه من النعم وأضدادها، لتنـــبيه الإنسان المستعد للخسران والسعادة [٢] . وقال طنطاوي جوهري : أقسم بأشياء عدَّدها ، وصنوفا من نعم أبدعها، كالشمس والقمر والكواكب [٣] .

ونقل الطبري أن قتادة بن دعامة السدوسي (٦١ ــ ١١٨/٦٨٠ ــ ٧٣٦) كان يذهب إلى أن الله أقسم بها لعظم شأنها عنده [٤] .

---

(١) مجمع ٢٦/٢٧ . وانظر الآلوسي ٢٩٢/٣٠ . عبده ٩٨ . موسى ١٢٦ . إسماعيل ٣٧٠ .

(٢) روح ٣٠ / ٢٩٢ . وانظر موسى ١٢٦ .

(٣) التـــــاج ٩٦ ــ ٧ .

(٤) جامع ٣٠ / ١٣٩ .

وجعل أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى (٣٨٥ ــ ٤٦٠/٩٩٥ ــ ١٠٦٧) العظمة مبدأ عاما فقال : القسم بالشيء تنبيه أو دليل على عظم شأنه [١]. ومن ثم علل عدة أقسام بما فى المقسم به من عظم الشأن أو جلالته [٢] .

ورد الزمخشرى عظمة بعض ما أقسم الله به إلى أمرين :

- دلالتـــــــه [٣] .
- منفعتـــــــه [٤] .

قـــال : أقسم بالقلم تعظيما له ، لما فى خَلْقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها الوصف [٥] .

وعاد الطبرسى إلى المبدأ العام، فأعطانا صياغة أخرى له ، قال فيها : فى القسم تعظيم للمقسم به[٦] .

---

(١) التـــبيان ١٠/ ٢٥١ ، ٣٥٦، ٣٩٦ . وانظـــــر الزمخشرى ٣/٣٣، ٢٩/١٥٧. الطبرسى ٣٠/٢٢، ١٥١. القـــرطبى ١٥/١٤٣ . ابن القيم ١/٤٥، ٢٢٩ . أبو حيـــان ٨/٣٨٤. ابن كثير ٤/ ٣١٨ . النيسابورى ٣٠/٨٥ . معترك ١/٤٥٣ . الإتقان ٢/١٧٠. الشوكانى ٤/ ٥ . عـــــبده ١٣، ١٤ ، ١٦، ٦٦ ، ٦٨، ٨٢ ، ٩١، ٩٨، ٩٩ . جوهـــــرى ٨٤ . الفـــراهى ٩، ١١ ــ ٢ . حســـين ٤٥ . الآلوســـى لعبد الحميد ٢٤٨ . شحاتة ٢٨١ . قمحاوى ٣/ ٢٦ .

(٢) التـــبيان ٩/٣٧٧ ، ١٠ /٢٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٦ . وانظر الرازى ٣١/١٠٥ ــ ٦، ١١٥، ٣٢/٨١ . ابن القيم ١/٥٧ ، ٨٦ ــ ٧ ، ٨٩ . الشوكانى ٥/٢٦٥ .الآلوسى ٣٠/١١٠، ١٢١ . موسى ١٢٥ . المدخل ١/ ٥٠٥ . رضا ١٦٧ . إسماعيل ٣٧٠ .

(٣) الكشاف ٣/٥٦٧ ، ٤/ ٥٨٤ . وانظر الطبرسى ٢٣ / ٤٨ . رضا ١٦٧ .

(٤) الكشاف ٤/ ٥٨٤ . وانظر الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٧ .

(٥) الكشاف ٤/ ٥٨٤ .

(٦) مجمع ٢٣ / ٤٨ . وانظر الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٨ .

وتعـــدى ذلك إلى الربط بين العظمة والاعتبار ، فقال : يقسم بخلقه للتنبيه على موضع العبرة فيه، لأن القسم يدل على عظم شأن المقسم به [1] .

وعـــلل بـــدر الديـــن محمد بن عبد الله الزركشى (٧٤٥ــ٧٩٤/ ١٣٤٤ــ ١٣٩٢) الاقســـام بها بأن العرب كانت تعظمها وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون [2].

وأتى جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩ــ٩١١/١٤٤٥ــ ١٥٠٥) بصيغة ثالثة للمبدأ العام ، قصر فيها المقسم به على المعظمات، فقال : لا يكون القسم إلا باسم معظم [3] .

وجـــاء د٠عبد الله محمود شحاتة بقول مطلق صرح فيه بأن العلماء والمفسرين ذهبوا إلى أن الله أقسم بمخلوقاته لبيان نواحى العظمة فيها وجلال قدرها [4].

ونقـــــل د٠فؤاد على رضا قولين بينهما شيء من البعد . قال فى أولهـــما : إن الله ــ عـــندما يقســـم بمخـــلوقاته ــ فإنما يقصد بقسمه رفعة شأنها ومكانتها، وإعـــلاء قدرهـــا وقدر خَلْقها على النحو الذى هى عليه، للدلالة بها على مطـــلق قدرته [5] .

وصـــرح فى الثانى بأن القرآن أبان أن عظمة هذه المخلوقات ليست فيها بذاتها، ولا بما حوته ، وإنما بمن صنعها وألزمها ناموسه [قانونه] لا تخرج عنه [6] .

---

(١) مجمع

(٢) البرهان ٣/ ٤١ . وأتى به غير منسوب : معترك ١/ ٤٥١ . الإتقان ٢/ ١٧٠ . رضا ١٦٧.

(٣) معترك ١/ ٤٥٠ . الإتقان ٢/ ١٧٠ . القاضى ٨٤ . والنظر جوهرى ٨٤ . أمين ٢٣٩ .

(٤) علوم ٢٨١ .

(٥) من علوم ١٦٧ .

(٦) نفســـــــــه .

ويتصل بالتعظيم كلمات أخرى ، قد يعبر بها عنه ، نتتبعها فيما يلى :

نقـــل القرطبى عن محمد بن السائب الكلبى (١٤٦ / ٧٦٣) أن الله أقسم بها لشرفها وفضلها[١] .

وذكر الزمخشرى أن المراد بالأقسام فى سورة التين : الإبانة عن شرفها[٢] .

وخشـــى الرازى ألا يظهر شرف بعض هذه الأشياء، فقال ذات مرة : اعلم أن الإشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الأمور الشريفة، فكيف يليق أن يقسم الله بهما ؟ وأطال فى الجواب فى إبانة خواص هذه الثمار والمواضع إلى أن خلص إلى أن المراد من القسم ــ فى الحقيقة ــ تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم [٣].

وجعل القرطبى الأمر مبـــــدأ عاما ، فصرح : إذا أقسم الرب بشىء أثبت له شرفا [٤].

وروى القـــرطبى عن الكلبى أن الله أقســـم بها لفضلها [٥]. وذكر أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى فى " كتر اليواقيت " : القسم بالشىء لا يخرج عن وجهتين :

---

(١) الجامع ١/ ١٥٦ .

وانظـــر الزمخشرى ٤/ ٧٤٤. الرازى ٢٨/ ١٦٦ ــ ٧، ٣١/ ١٤٨ ، ١٧٦ . القرطبى ١٧/ ٣٠ ، ٢٠ /٨١ . أبو حيان ٨/ ٣٧٨ ، ٤٤٧ . ابن القيم ١/ ٢٢٩ . النيسابورى ٣٠/٨٣، ٨٥ ، ١٥٩ . الشوكانى ٤/٤٠٥ ، ٥/٩٤ . جوهرى ٩٧ . الفراهى ٩ .

(٢) الكشاف ٤/ ٧٧ ٤ .

(٣) مفاتيح ٣٢ / ٩ . الفراهى ٩ .

(٤) الجامع ١٧ / ٣٠ .

(٥) الجامع ١/ ١٥٦ . الآلوسى ٣٠ / ٢٩١ .

وانظـــر الزمخشرى ٤/ ٧٩٣ . الطبرسى ٣٠/ ١٧٨ . ابن الجـــــوزى ٩/١٦٩ . الرازى ٣١/ ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٨٩ ، ٣٢/٦١ . القرطبى ١٧/٢٢٣ . أبو حيـــان ٨/ ٥٠٩ . =

إما لفضيلته كقوله : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [1] .

أو لمنفعة كقوله : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ [2].

وجعل القرطبي القسم تنبيها على الفضل [3] . وأتى محمد بن على الشوكانى (١١٧٣ــ١٢٥٠ / ١٧٦٠ ــ ١٨٣٤) بالأمر فى صورة قاعدة عامة ، فقال : ما من شيء أقسم الله به إلا وفى ذلك دلالة على فضله على جنسه [4] .

وعلل الطوسى الإقسام بهذه الأشياء مرة بعظم النفع أو الفائدة فيها [5] ، وهداية النفوس إلى تدبير مصالحها[6] ؛ وأخرى بالتنبيه على كثرة الانتفاع بها[7] .

= ابن القيم ٨٧/١ . الزركشى ٤٢/٣ . معترك ٤٥٢/١ . الإتقان ١٧٠/٢ . الشوكانى ٥/ ٢٦٥ . الآلوسى ٢٦/٢٧ . حسين ٤٦ .

(١) سورة التين ٢، ٣ .

(٢) سورة التين ١ . الزركشى ٣/ ٤٢ . معترك ١ . ٤٥١ ــ ٢ . الإتقان ٢/ ١٧٠ .

(٣) الجامع ١٧ / ٢٢٣ .

(٤) فتح ٣/ ١٤٠ .

(٥) التبيان ٩ / ٣٧٧ ، ٥٠٦ ، ٣٥٦/١٠ .

وانظر الطبرسى ٢٧/ ٧، ٢٦، ٢٢/٢٩ ، ١٥١/٣٠، ١٧٨ . ابن الجوزى ١٢٦/٩ . الرازى ١٤٧/٣١، ١٧١ ، ٣٢ /٦١ . الزركشى ٣/ ٤٢ . معترك ١/ ٤٥١ ــ ٢ . الإتقان ١٧٠/٢ . النيسابورى ٣/ ٨٣ . جوهرى ٩٦ . إسماعيل ٣٦٤ .

(٦) التبيان ٩ / ٣٧٧ .

وانظر الرازى ٣١ / ١٧٢ .

(٧) التبيان ١٠ / ٣٥٦ .

وانظر الطبرسى ٢٧/ ٧، ٢٦ . ١٥١/٣٠ ، ١٧٨ . ابن الجوزى ١٢٦/٩ . عبده ١٤ ، ٥٩ ، ٩٩ ، ١٢٣ .

وســبق أن رأينا القشيرى والزمخشرى يجعلان مجرد المنفعة أحد علتى الإقسام بها[1] .

وقــال الــرازى : اعلم أنه ــ تعالى ــ ينبه عباده دائما بأن يذكر فى القسم أنــواع مخــلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة ، حتى يتأمل المكلف فيها ، ويشكر عليها [2].

وعلــلها أكثر من مرة بما فيها من منافع الدنيا والدين [3]. ثم شرح هذه المنافع ووضــعها فى قاعدة عامة ، نصها : اعلم أن هذه الأشياء التى أقسم الله بها لابد أن يكــون فيها إما فائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو فائدة دنيوية توجب بعثا على الشكر أو مجموعهما [4] .

وذهب القرطبى إلى أن القسم بهذه الأشياء تكرمة لها [5] .

وأتى د . محمد محمد أبو شهبة بالأمر فى صورة قاعدة عامة ، فقال : قد يكون القسم لمنزلته وإظهار كرامته عند الله [6].

وقــال ابــن القيم : قال جماعة من المفسرين : أقسم الله بالتين والزيتون لمكان العزة فيهما [7] .

---

(1) الزركشى ٣/ ٤٢. معترك ١/ ٤٥١ ــ ٢ . الإتقان ١٧٠/٩ . وانظر عبده ١٣ ، ١٠٠ .

(2) مفاتيح ٣١ / ١٧١ . الفراهى ٨، ٤٣ .

(3) مفاتيح ٣١ / ١٤٧ ، ٣٢ / ٦١ .
وانظر النيــابورى ٣٠ / ٨٣ .

(4) مفاتيح ٣١ / ١٤٧ .

(5) الجامع ٢٠ / ٨١ . وانظر الشوكانى ٥/ ٩٤ . أبو شهبة ٢٤٨ .

(6) المدخــــل ٢٤٨ .

(7) التبيان ١/ ١١١ . أمين ٢٤١ . وانظر جوهرى ٩٧ .

وقال طنطاوى جوهرى : أقسم الله بهذه الأشياء إذ رأى نوع الإنسان يقسم بما عز عليه [1] .

وخرج عن هذا المجرى العام اثنان ، دافع كل منهما عن رأيه دفاعا مستفيضا ، وهما المعلم عبد الحميد الفراهى والدكتورة عائشة عبد الرحمن .

أما الفراهى فقد جاهر فى مقدمة كتابه بأنه ألفه من أجل ثلاثة مقاصد، كان الأول مـــنها إبطال الظن بأن القسم مشتمل على تعظيم المقسم به لا محالة ، ذلك الظن الباطل الذى صار حجابا على فهم أقسام القرآن، ومنشأ للشبهات [2].

فأصل القسم ـــ عنده ـــ ليس فى شىء من التعظيم [3]. واستدل على ذلك بما يلى :

- القسم لا يلزمه المقسم به فضلا عن تعظيمه [4] .
- للقسم كلمات ليست فى شىء من تعظيم المقسم به [5] .
- ربما أقسم القرآن بما ليس فيه شرف ، وما ليس من الجلالة بحيث يقسم بها خالقها، إن كان الإقسام بها لأجل شرفها[6] .
- التعظيم من عوارض القسم [7] .

---

(١) التـــــــاج ٩٧ .

(٢) إمعان ١٢ ـــ ٤ ، ٢١ ، ١٢٨ ـــ ٩ .

(٣) إمعان ١٣ ، ٢١ .

(٤) إمعان ٢٠ ، ٢١ .

(٥) إمعان ٢١ .

(٦) إمعان ٥ ، ٦ .

(٧) إمعان ٢٣ .

وكشف عن السبب فيما وصفه بالظن الباطل، فقال : وإذ كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات، كثر القسم بها . ولذلك ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود ، وعلى جهة التعظيم [1] .

وخلص إلى أن القسم نوعان متباينان :

- أقسام بصفات الله .
- وأقسام بالمخلوقات .

ولا يراد التعظيم من القسم إلا إذا كان بالله وشعائره . أما القسم بالمخلوقات فليس إلا لكونها آيات دالة [2] .

كما خلص إلى أن فى أسلوب القسم خصوصية تشبه ما فى بعض الأساليب الأخرى، كما نرى ــ مثلا ــ تأكيد الإثبات والإنكار بأسلوب الاستفهام أو التعجب ، فى أكثر الألسنة ، أو تأكيد التعجب بالنداء [3] .

وأعتقد أنه وقف هذا الموقف ، لأنه خلط بين التعظيم والتقديس والعبادة . نستنبط ذلك من قوله : المقسم به فى هذه الأقسام ــ وإن كان عند المتكلم كريما ومضنونا به ــ لكنه لا يكون مما يعبده ويقدسه ، وأمثال هذا القول [4].

---

(١) إمعان ٣٣ . أمين ٢٤١ .

(٢) إمعان ١٣ ، ٢١ وانظر الرازى لعبد الحميد ٢٥٤ .

(٣) إمعان ٢٥ ، ٣٣ .

(٤) إمعان ٢٥ ، ٣٣ .

وأمـــا الدكـــتورة عائشة عبد الرحمن فقد أعلنت أن جمهرة المفسرين اتجهوا بالأقســـام إلى تعظـــيم المقسم به ثم مضوا يلتمسون وجه هذه العظمة . وأكثر ما ذكروه يدخل فى الحكمة ، وهى تختلف تماما عن العظمة . فما من شىء فى الكون خُلق عبثا . وكل ما خلقه الله ، خلقه لحكمة ظاهرة لنا أو خفية علينا . أما العظمة فـــلا يهون القول بها لمجرد لمح وجه لظاهر الحكمة فى المقسم به . ثم إنهم لم يراعوا القيـــد فى المقسم به . واضطربوا كذلك فى ربط القسم بهذه الواو بجواب قسمه . فـــأين الصلة بين عظمة العاديات ضبحا ، وبين كنود الإنسان لربه ، وبعثرة ما فى القبور ؟ [1].

وأخـــيرا خلصت إلى ما يشبه ما خلص إليه الفراهى . فقد صرحت : الذى اطمأنـــنت إليه ـــ بعد طول التدبير للسياق ـــ هو أن الواو فى هذا الأسلوب قد خرجت عن أصل معناها اللغوى الأول فى القسم للتعظيم ، إلى معنى بلاغى [2] .

---

(١) الإعجـــاز ٤٢٦ ـــ ٧ .

(٢) الإعجـــاز ٢٣٠ ، ٢٣٤ .

٢ ـ لدلالتهـــا

وروى أبـــو حيـــان عن قتادة قولا ثانيا ، صرح فيه بأنه ـــ سبحانه ـــ أقسم بالعصر ـــ كما أقسم بالضحى ـــ لما فيهما من دلائل القدرة [١].

ووجـــــــه من استحسن أبو عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه (٣٧٠/ ٩٨٠) قـــوله الدلالة إلى وجود الله ، حين قال : أقسم بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ صانع [٢] .

ووجهها الطوسى إلى عظمة الله ، فقال : إنما جاز أن يقسم بهذه الأشياء لأنها تنبئ عن تعظيمه بما فيها من القدرة الدالة على ربها [٣] .

---

(١) البحر ٥٠٩/٨ . الآلوســى ٣٠ / ٢٩٢ . وأنى به غير منسوب : الزمخشرى ٤/ ٧٩٤ . الـــــــرازى ٢٨/ ١٦٧. ٨١/٣٢ . وانظر الطبرسى ٧/٢٧ . ابن الجوزى ٢٨/٨ . أبـــو حيان ٣٧٨/٨، ٤٥٤ . ابن القيم ٧٠/١ . ابن كثير ٢٥٥/٤. عبـــــــده ٣٤ . بدوى ١٧١ ـــ ٢ . الغمراوى ٢٣٣ . الكردانى ٣١ . دفتردار ٢٨٢ . المدخل ١/ ٥٠١ . رضا ١٦٧ . السامرائى ٥٦ . إسماعيل ٣٦٦ .

(٢) الزركشى ٣/ ٤٢ . وانظر ابن أبى الإصبع ١١١ . ابن القيم ٤٥/١، ٧٠ . معترك ٤٥١/١، ٤٥٣ . الإتقـــان ١٧٠/٢. الفـــراهى ١٠، ١٢ . موسى ١٢٥ ـــ ٦ . بـــدوى ١٧٠ . القطـــان ٣٠٢ . الآلوســى لعـــبد الحميد ٢٤٦ . أبو شهبـــة ٢٤٧ . أمين ٢٤٠ ـــ ١ . القاضـــى ٨٥ . الغمـــراوى ٢٣٣ . شحاتة ٢٧٩ . المدخـــــــــــل ١/ ٥٠٣ . قمحاوى ٢٤/٣ ـــ ١٠٦ . العمرى ٢٤٦ . رضا ١٦٧ .

(٣) البيان ٨/ ٤٤١ . وانظر بدوى ١٧٢ . موسى ١٢٥ ـــ ٦ . أمين ٢٤٣ . الغمروى ٢٣٣ . المدخل ١/ ٥٠١ . السامرائى ٥٦ .

وصـــرح الطبرسى مرة بأنه إنما جاز أن يقسم الله بها لما فيها من الدلالة على توحيده [١]، وصفاته العُلى[٢] ؛ ومرة لما تتضمنه من بدائع صنعه [٣] .

وأتـــى الرازى بقاعدة عامة قال فيها : الأيمان التى حلف الله بها كلها دلائل أخـــرجها فى صورة الأيمان . مثاله قول القائل للمنعم عليه : وحق نعمك الكثيرة، إنى لا أزال أشـــكرك . فيذكر النعم ــ وهى سبب مفيد لدوام الشكر ــ ويسلك مسلك القسم .

وتوهم من قد يسأل : فلِمَ أخرجها مخرج الأيمان ؟

وأجـــاب : لأن المتكلم ــ إذا شرع فى أول كلامه بحلف ، يعلم السامع أنه يـــريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر، فبدأ بالحلف ، وأدرج الدليل فى صورة اليمين ، حتى أقبل القوم على سماعه . فخرج لهم البرهان البين ، والتبيان المتين ، فى صورة اليمين [٤].

وصـــاغ عـــبد العظيم بن عبد الواحد المعروف بابن أبى الإصبع (٥٩٥ ــ ٦٥٤/ ١١٩٨ ــ ١٢٥٦) القول الذى استحسنه ابن خالويه فى عبارة شاعت فى الكتب بعده، قال : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل [٥].

---

(١) مجمع ٢٣ / ٤٨، ٧/٢٧ . وانظر الرازى ٣١ / ١٤٧ ؛ ١٥٠ . ابن القيم ١/ ٧٠ ، ٧٧ .

(٢) مجمع ٢٣ / ٤٨ . وانظر ابن القيم ١/ ٤٥ . دفتردار ٢٨٢ .

(٣) مجمع ٢٧ / ٧ . وانظر ابن الجوزى ٢٨/٨ . عبده ١٤، ٣٤ . أبو شهبة ٢٤٧ .

(٤) مفاتيح ٢٨ / ١٦٧ ــ الفراهى ٨ .

(٥) الخواطـــر ١١١ . معـــترك ٤٥١/١ ، ٤٥٣ . الإتقـــان ٢/ ١٧٠ . شحـــــاتة ٢٧٩ . قمحـــاوى ٢٤/٣ ــ ٦ . وانظـــر ابـــن القيم ٤٥/١ . الفراهى ١٢/١٠ . القطان ٣٠٢ . الآلوسى لعبد الحميد . القاضى ٨٥ . أمين ٢٤٠ ــ ١ . العمرى ٢٤٦ . رضا ١٦٧ .

ورد الطوسى أيضا الإقسام بها إلى ما فيها من العبرة [1] ، أو للتنبيه على موضع العبرة فيها[2] ، أو لتعظيم ما فيها من العبرة [3]، والطبرسى إلى أن فيها أعظم عبرة [4]، وأبو حيان إلى التعريض للاعتبار بها [5].

وأعلن الزمخشرى أن الله أقسم بالتين والزيتون لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة [6].

وقال الطبرسى : أقسم بالقمر لما فيه من الآيات العجيبة فى طلوعه وغروبه ومسيره وزيادته ونقصانه [7].

وذهب الرازى إلى أن الله أقسم بها لما فيها من حالة عجيبة، وأسرار عظيمة باهرة ، أو لما فيها من عجيب الصنعة، أو لما فيها من الآثار العجيبة [8].

---

(1) التبيان ٩/٣٧٧، ٥٠٦ ، ١٠ / ٢٥١ ، ٣٤١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢. وانظر الطبرسى ٣٠/٢٢، ١٧٨، ٢٢٦ . أبو حيان ٨/٤٤٧. إسماعيل ٣٦٣ ــ ٤ .

(2) التبيان ١٠/ ٢٥١ ، ٣٤١ ، ٣٦٢ . وانظر الطبرسى ٣٠ / ٢٢ . عبده ١٣ . الغمراوى ٢٣٣ . الكردان ٣١ . إسماعيل ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

(3) التبيان ٩/ ٣٧٧ . وانظر الطبرسى ٣٠ / ١٧٨ .

(4) مجمع ٣٠ / ١٧٨ .

(5) البحر ٨ / ٤٤٧ .

(6) الكشاف ٤/ ٧٧٣ ، ٧٩٤ . وانظر الطبرسى ٢٩/١١٦ . الرازى ٣١ / ٦٦، ٥،١٠٤ ، ١١٥ ، ١٥٠ . أبو حيان ٨/٣٧٨ .

(7) مجمع ٢٩ / ١١٦ . وانظر الرازى ٣١ / ١١٥ .

(8) مفاتيح ٣١ / ٦٦ ، ١٠٤ ، ١٥٠ .

وجعل أبو حيان القسم بها تنبيها على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله[1] .

ورأى د. محمد محمد أبوشهبة أن القسم بهذه الأشياء تنبيه إلى ما تنطوى عليه من أسرار وعجائب نعم وآلاء . فيؤدى النظر فيها إلى الإيمان بخالقها وموجدها، والإذعان لما جاء به الرسول [2].

ويتصل بالعجائب والأسرار الدعوة إلى التأمل . ذكر الرازى أن الهدف أن يتأمل المكلَّف فيها ، لأن الذى يقسم الله به يحصل له وقع فى القلب، فتكون الدواعى إلى تأمله أقوى [3].

وقال د. محمد أحمد الغمراوى : إذا أقسم الله فى كتابه بالليل والصبح والضحى والنهار، أفلا يكون فى هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها، ويتساءلوا: ماذا أودع الله فيها من مجالى حكمته ، ومظاهر عظمته وقدرته ، حتى استحقت أن يقسم لعباده بها، وهو خالقهم وخالقها [4]؟

وقال د. محمد بكر إسماعيل : فى طيات القسم مجالات رحبة للتأمل والنظر، ولطائف خفية يكتشفها المؤمن بنور بصيرته . فيزداد بها يقينا، يسمو به إلى مراتب العارفين بربهم [5].

---

(1) البحر ٨/ ٣٧٨ .

(2) المدخل ٢٤٧ .

(3) مفاتيح ٣١ / ١٧١ . وانظر حمودة ٢٣ . طنطاوى ٩٦ ــ ٨ . بدوى ١٧٠ . الغمراوى ٢٣٣. الكردانى ٣١ . دفتردار ٢٨٢ ــ ٣ . إسماعيل ٣٦٣ ؛ ٣٧٠ .

(4) الإسلام ٢٣٣ . الكردانى ٣١ .

(5) دراسات ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

وقـــال أبو حيان : أقسم الله بالطارق لما علم فيه من لطيف الحكمة، وتنبيها على ذلك [1] .

وأضاف ابن القيم أن الله أقسم بصنعته لدلالتها على كمال علمه وحكمته[2] .

وخشـــى جماعـــة مـــن العلماء أن تعلق بالأقسام بعض الأوهام ، فبادروا إلى إنكارها.

قال محمد عبده ما خلاصته فى تفسير التين والزيتون : قد يرجح أنهما النوعان من الشجر. ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا، بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة الـــتى لهـــا الآثار الباقية فى أحوال البشر. قال صاحب هذا القول: إن الله أراد أن يذكّـــرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسانية الطويل، من أول نشـــأته إلى يوم بعثة الـــنبى ﷺ فالتين إشارة إلى عهد الإنسان الأول ، فإنه كان يستظل فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين .

والزيـــتون إشـــارة إلى عهد نوح ، فقد أرسل بعض الطيور ، لعله يأتى بخبر انكشـــاف المـــاء عن الأرض، فغاب ولم يأت بخبر. ثم أرسل آخر، فجاء إليه يحمل ورقـــة مـــن الزيـــتون. فاستبشر وسر، وعرف أن غضب الله قد سكن، وقد أذن للأرض أن تعمر.

وطور سنين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية، وظهور نور التوحيد فى العالم ، بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية .

ثم لمـــا طـــال الأمد على البشرية حتى كادت أن تطمس معالم التوحيد والحق والشـــرائع، مَنّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ، ويفصل بين

---

(1) البحر ٨/ ٤٥٤ . وانظر عبده ٥٩ ، ٩٩ . العمراوى ٢٣٣ . الكردانى ٢٢ .

(2) التبيـــــــان ١ / ٧٠ .

ما سبق من أطوار الإنسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة. وإليه الإشارة بذكر البلد الأمين [1].

وقـــال طنطاوى جوهرى : لم يكن إقسام الله بهذه الأشياء لخوفه منها . فإنه الخالق، لن يهاب ما خلق ، ولن يحتاج لما ذرأ وأبدع .

ولم يُرد أن يعبدوها ، إذ لا إلاه إلا الله .

ولم يكن ذلك لتحريضهم على الحصول عليها وحوزها، فذلك مستحيل [2].

وافتتح عبد الحميد الفراهى كتابه بإعلان أن المقصد الثانى منه إبانة أن أقسام القـــرآن بالمخلوقات ليست إلا آيات دالة [3]، وأنه يعد ذلك أحسن الأقوال[4] . وفى أثـــناء الكـــتاب أعلن أنه لم يطمئن لهذا الرأى إلا بعد أن تأمل فى جميع أقسام القرآن، ولم يدله عليه إلا القرآن نفسه من وجوه عدة [5].

وتوهم أن يعارضه معارض قائلا : هب أن أصل القسم هو الإشهاد ، ولكنه لكـــثرة استعماله للتعظيم صار كالمنقول، وصار أصله كالمذهول عنه، فلا يصار إلى الأصل إلا بدليل واضح بيّن .

وأجـــاب : ســـلمنا ولكنا لم نذهب إلى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن إلا بدلالة القرآن من وجوه كثيرة ، دونك بيانها :

---

(١) تفسير جزء عم ١٢٣ . موسى ١٢٦ . أبو شهبة ٢٤٧ ــ ٨ . وانظر جوهرى ٩٧ .

(٢) التـــــاج ٩٧ .

(٣) إمعـــــان ١٣ .

(٤) نفســـــــه .

(٥) إمعـــــان ٤٦ .

الأول : سنة القرآن في استعمال بعض الكلمات مرة لله وأخرى للعبد . وحينئذ يميز بين وجوهها حتى لا يكون مخالفا لجلالة ربنا ، مثل كلمة الصلاة : فإنها الرحمة من الله ، والدعاء من العبد .

الثاني : حمل النظير ، وتفسير الآيات ببعض . فإنك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة تارة على أسلوب القسم بها ، وأخرى على أسلوب الآية والعبرة، وكلها إشهاد لمن يتفكر فيها [1].

الثالث : دلالة المقسم به نفسه . فالعاقل لا يتوهم أن الله يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس[2] .

الرابع : المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه . فإن القرآن وضع أكثر هذه الأقسام بحيث لا تخفى على العاقل جهة دلالتها على ما أقسم عليه .

الخامس : تعميم المقسم به على طريق تعميم الآيات الدالة ، كما قال : ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [3] فلم يترك شيئا إلا وقد أقسم به، كما قال : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [4] فلم يترك شيئا إلا وقد أنطقه بحمده وأشهده بمجده. ويشبه هذا التعميم استعمال المتقابلين ، حيث أقسم بالليل والنهار، والأرض والسماء. فكيف يظن أن الله عظّم كل شيء . والسبيل إلى جعله آية دالةً ظاهرٌ ، فلا يصار إلا إليه[5] ؟ .

---

(١) إمعان ٤١ ــ ٢ .

(٢) إمعان ٤٢ . أمين ٢٤٣ .

(٣) سورة الحاقة ٣٨ ــ ٩ .

(٤) سورة الإسراء ٤٤ .

(٥) إمعان ٤٣ .

السادس : ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلا للعقلاء كما قال : ﴿وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ [1] فهذه الجملة الأخيرة مثل ما تجد كثيرا فى القرآن بعد ذكر الدلائل ، كما جاء فى الآية ٦٧ من سورة النحل : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [2].

السابع : ذكر المقسم به على صفة خاصة تشير إلى جهة الاستدلال ، كقوله : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [3] .

الثامن : ما يسبق المقسم به من صريح ذكر الآيات الدالة ثم التعبير عن المقسم به على وجه يشير إلى تلك الآيات، كأنه مهد ـ من قبل ـ لما أريد من وجه الاستدلال . ومثل لذلك بسورة الذاريات [4].

ثم تساءل فقال : فإن سأل سائل : كيف خفى الصواب على العلماء أم كيف يطمئن القلب بهذا القول المبتدع ؟

وأجاب بما يلى :

هذا المعنى للقسم ليس ببدع . بيد أنه خفى عليهم بعض وجوهه ومعانيه، فلم يتمسكوا به كل التمسك: فإما تركوه فى بعض المواضع ، وإما خلطوا به معنى آخر.

ولنذكر هنا بعض أسباب الخفاء ليظهر عذرهم :

---

(١) سورة الفجر ١ ـ ٥ .

(٢) إمعان ٤٣ . أمين ٢٤٣ .

(٣) سورة النجم ١ .

(٤) إمعان ٤١ ـ ٤ .

الأول : كـــون المقســـم به ـــ فى بعض المواقع ـــ نفسه شريفا، مثل القرآن والطـــور ومكـــة، فـــلم يحتاجوا إلى جعل الإقسام به استدلالا، وظنوا أن القسم بالشـــريف العظيم عام شائع. وإذا وجدوا المقسم به ذا احتمالات ، أخذوا منها ما يشبه بالشرف .

الثانى : كون الحكماء نُجْعتهم الأمور الكلية . فلا يعجبهم رأى ينخرم بعض جوانـــبه . ووجه الدلالة فى بعض الأقسام كان خفيا. فلما لم يتبين لهم، زعموا أن هـــذه الكـــلية لا تصـــح هاهنا. وبخاصة أنْ ليس من دأب أكثرهم الإقرار بالعجز وتحويل العلم إلى الله .

الـــثالث : لما وجد الأولون القسم بالله وشعائره شائعا، غلب على ظنهم أن ذلك هو الأصل. فإذا وجدوا القسم بغيره، جعلوه مجازا . ثم رأوا أن المجاز لا يصار إليه إلا إذا تعذرت الحقيقة. ولكن محض الكثرة ليس دليل الأصالة، ولا المصير إلى المجاز مشروطا بتعذر الحقيقة. بل الصواب أن تأخذ من المعانى ما هو أحسن وأحرى وأشبه بالسياق، وماله نظائر فى باقى السياق. فلما جعلوا الفرع أصلا، خفى عليهم حقيقة معنى القسم بالشىء.

الرابع : شهرة بعض أمور ـــ ذات وجوه ـــ على وجه خاص . فمهما كانت المناســـبة بـــين المقســـم بـــه والمقسم عليه منوطة ببعض هذه الوجوه، خفى وجه الاستدلال على من خفى عليه ذلك الوجه .

الخـــامس : انشغال علمائنا بالعلوم العقلية والنقلية المشهورة عن علوم أكبر مـــنها نفعـــا فى التفسير، أعنى علم لسان أُوحى به إلينا وإلى من قبلنا وتاريخ هذه الأمم السامية وعلومهم وآدابهم [1] .

---

[1] إمعـــــان ٤٥ ـــ ٧ .

ووقـف الفراهى أمام السؤال الذى وقف أمامه الرازى وأجاب عنه قـارئه قـائلا : لعـلك تقول: إن كانت هذه الأقسام دلائل لا غير ، فلِمَ لم تذكر على أسلوب الاحتجاج الصريح ؟ .

وكان جوابـه : اعلم أن الاستدلال ـ إذا كان على أمـور لا تتعلق بها [العواطف من] الرغبة والنَّفْرة ، مثل ما ترى فى العلوم الطبيعية والرياضية أو فى تاريخ الأولين على الأكثر ـ كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح .

أمـا إذا اسـتدللنا على أمور نفسانية، يتصادم فيها من القائل والسامع حث واسـتنكار، وزجر واستكبار، وإلحاح وإصرار، احتجنا إلى إيراد الأدلة على وجوه مختلفة من أساليب الكلام، متفاوتة فى الوضاحة واللطافة، والقوة والحدة .

وربما تبدّل الأسلوب لمحض اجتناب ملال السامع أو رجاء أن ينجح فيه بعض الأساليب أكثر من بعض، كما صرح القرآن : ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُـونَ ﴾ [1]، وكمـا فعل إبراهيم مع الذى حاجّه فى ربه. فترك الإصرار على الدليـل الأول حين لم يفهمه الخصم، وعمد إلى دليـل آخـر أقرب إلى فهمه ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [2]. فهذه جملة الجواب [3] .

وأخيرا ناظر الفراهى بين أسلوب القسم وبعض الأساليب الأخرى التى نص النحويون والبلاغيون على خروجها عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى، فقال : يـدل القسـم على إظهار التأكيد والجد فى القول، كما ترى فى قول المرسلين من النصـارى حيث جاء فى القرآن : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا

---

(١) سورة الأنعام ٦٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٨ .

(٣) إمعـان ٤٨ .

إِلاَّ الْـبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [1] أو كما ترى فى قوله : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّـدْعِ * إِنَّـهُ لَقَـوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [2] وقد صرح فى المثالين المذكوريـن ، وذلـك لخصوصية فى أسلوب القسم لا لأن فيه تعظيما، كما ترى تأكيد الإثبات والإنكار بأسلوب الاستفهام أو التعجب فى أكثر الألسنة ، أو تأكيد التعجب بالنداء كقولك : يا للماء ، و :

* يالقومى للشباب المبكر[3] *

ونظـرت د٠عائشة عبد الرحمن فى الواو المبدوءة بها آيات الأقسام، فى ضوء مـا تعرف من أن الأصل فيها أن تأتى فى درَج الكلام للربط والعطف، فإذا جاءت للقسم فإن لها الصدارة فى مقام التوثيق لما يسبق إنكاره أو الإقرار والشهادة .

فوجـدت أن ليـس فى القـرآن " والله " قسما غير قسم المشركين فى آيتى الأنعام، ووجدت القسم بـ " رب " فى أربع آيات . والواو فى كل هذه الآيات فى درج الكلام ، وليست فى مستهل السورة أو الآية، فإذا وقعت فى أول الآية كانت مسبوقة بالفاء أو فلا ، والقسم فيها على وجهه من التأكيد والتقرير .

ووجدت المفسرين والبلاغيين قنعوا بأنها لإعظام ما تلاها، وحملوا الآيات من التأويلات الفلسفية والإشارية ما لا نتصور أن هذه الواو يمكن أن تحمله من قريب أو بعيد .

مـن هـنا كان وقوفها أمام هذه الظاهرة الأسلوبية فى البيان القرآنى ، لعلها تجتلى من سرها البيانى، ما تضيفه إلى فكرة الإعظام التى سيطرت وحدها على كل من قرأت لهم من المفسرين والبلاغيين .

---

(١) سورة يـس ١٦ ــ ٧ .

(٢) سورة الطـارق ١١ ــ ٤ .

(٣) إمعـان ٤٨ ــ ٩ . وانظر فصل البلاغة والإعجـاز .

والذى اطمأنت إليه ــ بعد طول التدبر لسياق الواو فى الآيـــات المستهلة بهـا ــ هـو أن هـذه الواو قد خرجت عن أصل معناها اللغوى الأول فى القسم للتعظـيم، إلى معـنى بلاغى ، هو اللّفت ــ بإثارة بالغة ــ إلى حسّيات مدرَكة لا تحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة، توطئة إيضاحية لبيان معنويات يُمارَى فيها ، أو تقريـر غيـبيات لا تقع فى نطاق الحسيات والمدركات. وهذا البيان للمعنوى بالحسى، هو مدار استعمال البيان القرآنى، وهو الذى يمكن أن يعرض على الآيات المستهلة بواو القسم، فتقبله دون تكلف فى التأويل أو اعتساف الملحظ[1] .

وقـوة الـلفت فى مـثل هذا الأسلوب تأتى من العدول بالواو عن موضعها المألوف فى درج الكلام ، فتثير أقصى التنبه .

ولعـل السـلف الصالح من المفسرين، ما فاتهم هذا الملحظ البيانى إلا لأن علماء البلاغة قد عرفوا خروج الخبر والاستفهام والأمر والنهى عن معانيها الأولى فى أصـل الـلغة ، إلى معـان بلاغية نصوا عليها فى كتب البلاغة المدرسية . ثم لم يشـيروا إلى خـروج القسم عن معناه الأول . فكان ما كان من اعتساف التأويل للآيات المبدوءة بواو القسم ، لتظل كما أراد لها علماء البلاغة ، على أصل معناها اللغوى ، لا تخرج عنه إلى معنى بلاغى [2].

وانفـرد بعض العلماء بذكر علل للأقسام لم تتكرر عند غيرهم من مراجعى مثال ذلك قول الطوسى : إن الله أقسم بهذه الأشياء لما فيها من اللطف[3] ، وقول

---

(١) الإعجاز ٢٢٦ ــ ٣٠ .

(٢) الإعجاز ٢٣٣ ــ ٤ .

(٣) التبيـــان ٩ / ٣٧٧ .

الطبرسي : لبركتها[1] ، وقول الرازى : لإيجاب الشكر على الناس[2] ، وقول أبي حيان: التنبيه على كونها قوام الوجود [3]، وقول الآلوسى : لإرهاب المنكرين [4]، وقول محمد عبده : لتقرير وجودها فى عقل من ينكرها، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم، أو لتقريع من خصها بالعبادة [5]، وقول طنطاوى جوهرى : للحث على العمل الصالح [6]، وقول د . أحمد أحمد بدوى : لإثارة العاطفة الوطنية التى تدفع إلى تقديس الوطن [7]، وقول د. محمد بكر إسماعيل : للتحذير من شرها[8] . والحق إنه لا يمكن حصر ما قالوا من علل حصرا شاملا ، وبخاصة إذا تتبعنا الأقسام واحدا بعد واحد .

وتكشف هذه الجولة أننا يمكن أن نجمع كل الأقوال التى قيلت فى تعليل إقسام القرآن بالأشياء فى علتين عامتين : العظمة والدلالة. ونذهب إلى أن العظمة تجمع الشرف والعزة والفضل والنفع وما إليها . ونضع تحت اسم الدلالة كل ما أشارت إليه من وجود الله الخالق لهذه الأشياء وصفاته .

---

(1) مجمع ٢٧ / ٢٦ .

(2) مفاتيح ٣١ / ١٤٧ ، ١٧١ .

(3) البحر ٨ / ٣٧٨ .

(4) روح : ٣٠ / ١١٠ .

(5) جزء عم ١٣ ، ٣٤ ، ١٢٣ . وانظر موسى ١٢٥ ــ ٦ .

(6) بلاغة ٤٦ .

(7) من بلاغة ١٧٢ .

(8) دراسات ٣٧٠ .

وتكشـــف أيضا أن القدماء لم يجدوا أدنى تعارض بين العلتين العامتين، اللتين ذكـــرتهما. ولذلك جمع بعضهم بينهما فى القســم الواحد، ورد بعضهم عظمة بعض الأشياء إلى كونها دالة على إحدى صفات الخالق .

ويؤدى بنا هذا إلى أن نعرف أن الفراهى أخطأ حين فرق بين العلتين، وخلط بـــين التعظيم والتقديس، وظن أن الرازى انفرد بالقول بالتعظيم . وكال له ـــ من أجل ذلك ـــ التهم دون وجه حق ، لأن الرازى قال بالعلتين كلتيهما .

وتكشـــف أن الفـــراهى ود٠عائشة عبد الرحمن سارا فى طريق واحد، وأن العلميين والقائلين بالإعجاز العلمى من المحدثين عنوا بعلة الدلالة على حساب علة العظمة .

٣ ـ تقدير مضاف محذوف

نقل الطبرى أن معنى القسم فى أمثال سورتى الطور والتين على مذهب مالك ابن أنس (٩٣ ــ ٧١٢/١٧٩ ــ ٧٩٥) : ورب الكتاب المسطور، وخالق التين والزيتون [١].

ونقل الطوسى أن أبا على محمد بن عبد الوهاب الجبائى (٢٣٥ ــ ٣٠٣/ ٨٤٩ ــ ٩١٦) قال : القسم فى كل ما ذكر فى القرآن من المخلوقات، إنما هو قسم بربه [٢].

ونسب الرازى هذا القول مرة إلى القاضى، أى عبد الجبار بن أحمد (٤١٥/ ١٠٢٥) [٣] ، وأخرى إلى المتكلمين [٤]، وثالثة إلى جماعة من أهل الأصول [٥].

واعتل الجبائى بأن القسم لا يجوز إلا بالله [٦] .

---

(١) الجامع ١٠/ ٤١ . وأتى به غير منسوب : الطوسى ٤٤١/٨ ، ٣٥٥/٩ ، ٣٧٧ ، ٤١٨ ، ١٠/ ١٨٣ ، ٢٢٣ ، ٢٥١، ٣١٢، ٣١٥، ٣٥٦ . البغوى ٣٤/٧ . الطبرسى ١١٧/٢٩ ، ٢٢٣ ، ٣٠ / ٢٢، ٩٩ ، ١٦٦، ٢٥١، ٣١٢ ، ٣١٥ . ابن الجوزى ٤٥/٧ ، ٢٧/٨. الزركشى ٣/ ٤١ . النيسابورى ٨٤/٣٠، ٩٨ . معترك ١/ ٤٥١ . الإتقان ٢/ ١٧٠ . الشوكانى ٣٧٤/٤ ، ٥/ ٤٤٥ ، ٤٥٥، ٤٩٥ . المدخل ١/ ٥٠٣ . العمرى ٢٤٥ .

(٢) التبيان ٥٠٧/٩ ، ١٠/ ١٠٨ . الطبرسى ٤٨/٢٣، ٤٩/٢٩ ، ٣٠ / ١٥٧ .

(٣) مفاتيح ٣١ / ١٥٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ .

(٤) مفاتيح ٣١ / ٩٩ .

(٥) مفاتيح ٣١ / ١٧١ .

(٦) الطوسى ١٠ / ١٠٨ . الطبرسى ٢٣ / ٤٨ . وانظر الرازى ٣١ / ٩٩ .

وصـــرح ــ هـــو والقاضـــى ــ بأن الذى سوغ حذف المضاف كون حجج العقول دالة على المحذوف [1] .

واستدل القاضى على رأيه بما يلى :

* لا يجوز أن يكون المراد من قوله ﴿ وَمَا بَنَاهَا ﴾ الله ، للأسباب التالية :

(ما) لا تستعمل فى خالق السماء إلا على ضرب من المجاز .

لا يجوز منه ــ تعالى ــ أن يقدم قسمه بغيره ــ السماء ــ على قسمه بنفسه.

لا يكاد يذكر ــ تعالى ــ مع غيره على هذا الوجه .

لا بـــد إذن من التأويل ، وهو أن (ما) مع ما بعدها فى حكم المصدر، فيكون التقدير: وَالسَّمَاءِ و بِنَائها [2] .

* القســـم ــ فى ســـورة الفجر ــ دال على المبالغة . ومعلوم أن المبالغة فى القسم لا تحصل إلا فى القسم بالله [3].

وأتـــى بهـــذا الاستدلال فى صياغة أخرى ــ فى موضع آخر ــ مع نسبته إلى أصحاب هذا القول ، دون تحديد، فذكر أنهم احتجوا عليه بوجوه :

الأول : أنه ﷺ نهى عن الحلف بغير الله . فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله ؟

الـــثانى : أن الحلف بالشىء تعظيم عظيم للمحلوف به . ومثـــل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله .

---

(1) الطبرسى ٢٣/ ٤٨ ، ٢٩ / ٤٩ ، ١١٧ ، ١٥٧ .

(2) مفاتيح ٣١ / ١٧١ . وانظر النيسابورى ٣٠ / ٩٨ ــ ٩ .

(3) مفاتيح ٣١ / ١٥٠ ، ١٧١ .

الـثالث : أن هذا الذى ذكرناه تأكـــــد إذ صرح ــ تعالى به فى قوله : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [1] .

ورد الطوســى عــلى هذا الرأى بأنه ترك للظاهر من غير دليل، لأنه قد يجوز ذلــك القسم على جهة التنبيه على ما فى الأشياء من العبرة والمنفعة. واستدل بقول الحسن البصرى الذى ينص أن لله أن يقسم بما شاء [2].

واعــترض الزمخشــرى على جعل (ما) فى الآيات مصدرية، لأن ذلك ــ فى رأيــه ــ يؤدى إلى فساد النظم . ورأى أن الوجه أن تكون موصولة . وإنما أُوثرت عــلى (مَــن) لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذى بــناها، ونفــس والحكــيم الباهر الذى سواها. وفى كلامهــــــم : سبحان ما سخركن لنا [3] .

وشــرح الــرازى فساد النظم الذى أشار إليه الزمخشرى فأعلن أنه يلزم من تأويل القاضى أن يكون المراد (ورب السماء وربها) وذلك كالمتناقض [4] .

ثم نظر فى قوله وقول الزمخشرى ، وتساءل :

إن الذى ذكره صاحب الكشاف من أن (ما) هاهنا لو كانت مصدرية لكان عطف (فألهمها) عليه يوجب فساد النظم : حق .

---

(١) مفاتيح ٢٦ / ١٠٣ .

(٢) البيان ٩/ ٥٠٧ ، ١٠/ ٢٥١ . وأتى به غير منسوب : الطبرسى ٢٢/٣٠ . وانظر الشوكانى ٥/ ٤٥٥ .

(٣) الكشــاف ٤/ ٧٥٩ . الــرازى ٣١ / ١٧١ ، ١٧٣ . النيسابورى ٩٨/٣٠ . الآلــوسى ١٨٢/٣٠ .

(٤) مفاتيح ٣١ / ١٧١ .

والـــذى ذكره القاضى من أنه لو كان هذا قسما بخالق السماء لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس ؛ هو إشكال جيد .

ثم قدم الحل بقوله : والذى يخطر ببالى فى الجواب عنه : إن أعظم المحسوسات هـــو الشمس. فذكرها ــ سبحانه ــ مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها . ثم ذكـــر ذاتـــه المقدســـة بعد ذلك، ووصفها بصفات ثلاث ، وهى تدبيره للسماء والأرض والمركبات . ونبه على المركبات بذكر أشرفها ، وهى الشمس .

والغـــرض مـــن هـــذا الترتيب هو أن يتوافق العقل والحس على عظمة جرم الشـــمس . ثم يحـــتج العقل الساذج بالشمس ، بل بجميع السماويات والأرضيات والمركبات، على إثبات مُبدئ لها . فحينئذ يحظى العقل بإدراك جلال الله وعظمته، على ما يليق به ، والحس لا ينازعه فيه . فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يَفاع عالم الربوبية وبيداء كبرياء الصمدية [1].

وشـــرح النيسابورى الموقف الأخير من الرازى ــ دون أن يذكره ــ بأن الله أراد أن نـــتدرج من المحسوسات إلى المعقولات ، ومن المصنوعات إلى الصانع[2] . وكـــان أدق من الرازى حين وصف ما يلزم عن تأويل القاضى بالتكـــــــرار لا التناقض[3] .

---

(١) مفاتيح ٣١ / ١٧٣ .

(٢) غرائب ٣٠ / ٩٩ .

(٣) غرائب ٣٠ / ٩٨ .

٤ ـ الأشياء التى أقسم الله بها

من البديهى أن المفسرين تصدوا لإبانة ما أقسم الله به فى كل واحد من الأقسام حسب موقعه فى المصحف . ولكننى ـ فى هذا المقام ـ لن أعنى بهذه الحالات الفردية ، وإنما أعنى بالمحاولات التى اضطلع بها بعض العلماء لإبانة كل ما أقسم الله به أو مجموعة كبيرة منه فى موضع واحد.

وأول ما أتعرض له تلك التى تتجلى فى قول ابن أبى الإصبع : المفتتحات بالقسم خمس عشرة سورة . وهى على خمسة أضرب :

- ضرب أقسم فيه سبحانه بالملائكة .
- وضرب أقسم فيه بالأفلاك .
- وضرب أقسم فيه بلوازم الأفلاك .
- وضرب أقسم فيه بالعناصر .
- وضرب أقسم فيه بالمولّدات، أعنى الحيوانات والنباتات والجمادات.

فالضرب المقسم فيه بالملائكة سورة واحدة ، وهى الصافات.

والضرب المقسم فيه بالأفلاك سورتان ، وهما البروج ، والطارق .

والضرب المقسم فيه بلوازم الأفلاك ست سور، وهى النجم ، والفجر، والشمس ، والليل ، والضحى، والعصر .

والضرب المقسم فيه بالهواء سورتان، وهما المرسلات ، والذاريات.

والضرب الذى أقسم فيه بالتربة سورة واحدة، وهى الطور .

والحكمة فى ذكر هذين العنصرين الأخيرين أن جميع المولدات من العناصر لا تخرج عن لطيف وكثيف. فكثافة الكثيف من التراب، ولطافة اللطيف من الهواء .

فكـــان ذكر هذين العنصرين مستلزما ذكر كل لطيف وكثيف. فلأجل ذلك كان ذكرهما دون غيرهما مما تقتضيه البلاغة. وأيضا فإن طبيعة الهواء حارة رطبة، وطبيعة الـــتراب باردة يابسة. والحرارة والرطوبة طبعُ الحياة، والبرد واليبس طبيعة الموت. فكـــأن ذكر هذين العنصرين يتضمن ذكر الحياة والموت، اللذين لا يَعْرَى الموجود عن أحدهما. فتعين ذكرهما دون غيرهما.

والمقسم فيه بالمولدات على ثلاثة أضرب :

- ضرب أقسم سبحانه فيه بالجماد ، وهى سورة واحدة، وهى الطور.
- وضرب أقسم فيه بالنباتات فى سورة واحدة أيضا ، وهى التين .
- وضرب أقسم فيه بالحيوان ، وهو صنفان :
  - صـــنف أقســـم فيـــه بـــالحيوان الناطق، وهو سورة واحدة، هى النازعات.
  - وصنف أقسم فيه بالحيوان البهيم ، وهو سورة واحدة أيضا، وهى العاديات [1].

وذهب ابن القيم إلى أن القسم لا بد أن يكون بما يحسن فيه التوكيد كالأمور الغائـــبة والخفية. أما الأمور الظاهرة المشهورة ـــ كالشمس والقمر والليل ـــ فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها [2].

وحصر ما أقسم الله به فى :

- نفسه الموصوفة بصفاته .
- وآياته المستلزمة لذاته وصفاته .

---

(1) الخواطر ٨٠ ـــ ٢ .

(2) التـــبيان ١/ ٤٦ . معـــترك ١/ ٤٥٣ . الإتقان ٢/ ١٧١ . قمحاوى ٣/ ٢٦ . وأتى به دون نسبة: القطان ٣٠٤ . أمين ٢٤٤ . شحاتة ٢٧٤ . العمرى ٢٤٧ .

• وبعض المخلوقات [1].

وجاء الزركشي بقولين : قال في أولهما : أقسم الله بنفسه في سبعة مواضع :

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2].

﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [3].

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [4].

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [5].

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [6].

﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [7].

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [8].

والباقي كله أقسم بمخلوقاته [9].

وقال في الثاني : أقسم سبحانه بثلاثة أشياء :

---

(1) التبيان ١/ ٤٥ . معترك ١/ ٤٥٣ . الإتقان ٢/ ١٧١ . الفراهي ١٠، ١٢ . قمحاوى ٣/ ٢٥ . وأتى به دون نسبة : القطان ٣٠٢ . الآلوسي لعبد الحميد ٢٤٦ . أمين ٢٤٠ ، العمري ٢٤٦ . وانظر خليف ٩٦ ــ ٧ .

(2) سورة النساء ٦٥ .

(3) سورة يونس ٥٣ .

(4) سورة الحجر ٩٢ .

(5) سورة مريم ٦٨ .

(6) سورة الذاريات ٢٣ .

(7) سورة التغابن ٧ .

(8) سورة المعارج ٤٠ .

(9) البرهان ٣/ ٤٠ . وأتى به غير منسوب : معترك ١/ ٤٥٠ . الإتقان ٢/ ١٧٠ . القطان ٣٠. القاضي ٨٤ . شحاتة ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ . قمحاوى ٣/ ٢٣ . الغمري ٢٤٤ . رضا ١٦٦ . وانظر أمين ٢٤٠ .

أحدها : بذاته ، كقوله : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [1] .

والثانى : بفعله ، كقوله : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [2] . ويصلح هذا على اعتبار (ما) مصدرية .

والثالث : مفعوله ، نحو : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [3] .

وأفاض طنطاوى جوهرى كما أفاض ابن أبى الإصبع قبله. فقال : تراه ــ عز شأنه ــ أقسم عشرين قسما بالأجرام العلوية وخواصها وأضوائها ومواقعها، تراه أقسم بالفجر، والفلق ــ وهو الصبح ــ والشمس ، والضحى ، والنهار، والعصر، والليل إذا يغشى ــ يغطى ــ المخلوقات كأنه ملاءة منشورة عليهم، والليل إذ يسرى ــ يسير ــ حول الكرة الأرضية تابعا النهار، والنهار يتبعه .

وأقسم بالليالى العشر ، فى أول كل شهر عربى، لغلبة ظلامها على ضوئها.

وأقسم بالنجم إذا هوى ، تنبيها على مغارب النجوم وإيقاظا لها .

وأقسم بمواقع النجوم وأماكنها الواقعة فيها ودوائرها .

وقال : ﴿ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ أى محل الشروق والغروب .

وأقسم بالشفق ، وبالليل ، وبما وسق ــ أى جمع .

وأقسم بالقمر ، وبالسماء ذات البروج، تنبيها لمعرفتها ، لتعرف السنون والشهور والأيام .

وأقسم بالسماء ووصفها بأنها ذات الحبك ــ أى طرق النجوم ــ وبالقمر إذا اتسق ــ أى امتلأ بالنور .

---

[1] سورة الذاريات ٢٣ .

[2] سورة الشمس ٥ ــ ٧ .

[3] سورة النجم ١ . البرهان ٣/ ٤٢ . وأتى به غير منسوب : معترك ١/ ٤٥٢ . الإتقان ٢/ ١٧٠ . القاضى ٨٦ . شحاتة ٢٨٠ . المدخل ١/ ٥٠٤. قمحاوى ٢٤/٣ . ونسبه للسيوطى :رضا ١٦٨ .

وأقسم بالسماء ، وبمن بناها .

وأقسم بالنازعات غرقا ، وهى النجوم التى ترمى شهبا عن دوائرها المشبهات القوس . فكأن النجم إنسان، والدائرة قوس ، والشهاب الساقط سهم. وذكر أنها ناشطات فى سيرها، مسرعات فيه، تتم دورانها كالشمس فى سنة، والقمر فى شهر. فقال : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ أى النجوم التى تسبق غيرها، وتتم دورها سريعا ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [1] وهى هذه النجوم ، لأنها بها يتم تدبير العالم .

ثم إنه أقسم بذكر أشياء أخرى مما تحت الفلك ، وأحاط بالكرة الأرضية :

فأقسم بالرياح الذاريات ، وبالجبال ، فقال : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ أى الرياح التى تحمل السحاب، وتذرو الأشياء .

وأقسم بالأرض وما طحاها. فالأرض مفهومة، وطحوها دحيها وتسويتها وإتقانها.

وأقسم بالجبل فقال : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾

وبالنبات فقال : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾

وبالبلد الذى خرج منه سيدنا محمد ﷺ فقال : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾

وأقسم بالخيل فقال : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ أى الخيل التى تعدو وهى تضبح فى الجرى ضبحا .

وأقسم بكل من يُحِس ، وكل ما يُحَس ، فكأنه أقسم بكل محسوس وبكل ما يحس به .

وأقسم بالناطق والصامت فقال : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [2]

---

(١) سورة النازعات ٢ ــ ٥ .

(٢) سورة البروج ٣ .

وأقسم بيوم القيامة، ويوم الجزاء ، ويوم الميعاد، الذى سيجازى فيه الناس.

وأقسم بالكتب المسطرة المنثورة ، وهى ما يقرؤه الناس .

وأقسم بالبحر .

ثم عمم القسم بكل ما خلق فقال: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ *وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾[1].

فكأنه أقسم بكل شيء ــ إذ العالم قسمان : ما يُبصَر ، وما لا يبصر.

وجـــــاء بتعميم آخر ، فأقسم بالشفع والوتر. ولا ريب أن العدد إما شفع أو وتر .

وهــذه نحــو عشــرين قسما . أحاط بها بالأرض والهواء والسحاب والجبال والنبات والحيوان .

وخصص الإنسان منه فقال : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ [2] أى أقسم بآدم وأولاده وغيرهــم . وخصــص ذلك بعد فقال :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [3] فأقسم بالنفوس وتسويتها.

فتراه أقسم بأمهات العالم كلها . وأخيرا أقسم بكل ما خلق مما نشاهد وما لا نشاهد.

تفيــد هذه الأقسام بالعلويات ــ وهى تبلغ العشرين ــ وبالسفليات ــ وهى تبــلغ العشــرين أيضــا ــ أن الله أمر عباده، وأوجب عليهم النظر فى العلويات والسفليات بالتساوى، وفى الحساب والهندسة ... وجميع العلوم [4].

---

(1) سورة الحاقة ٣٨ ، ٣٩ .

(2) سورة البلد ٣ .

(3) سورة الشمس ٧ .

(4) التاج ٩٧ ــ ١٠٠ .

وذكر د٠أحمد أحمد بدوى أن القرآن أقسم بالرب، وحياة المخاطب (الرسول)، ومصنوعات الله ، كالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفس [١].

وقال د٠عبد الله محمود شحاتة : أقسم القرآن بكثير من مخلوقات الله ، وبالملائكة، وبالنبى ، وبمظاهر الكون كالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق وبالعصر والضحى والشمس، والبلد ، ووالد وما ولد، وبالفجر والتين [٢].

وأجمل د٠يوسف خليف الأمر فى قوله : جرى القسم فى القرآن على خمسة أساليب .

فالله يقسم بذاته الموصوفة بصفاته، مثل :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [٣].

ويقسم بآياته المستلزمة لذاته .

ويقسم بنبيه .

ويقسم ببعض مخلوقاته .

ويقسم بالقرآن [٤] .

وخالف ــ محقا ــ من سبقوه، فذكر أن قسمه بذاته ورد فى عشر آيات، منها آيتان مدنيتان، والثمانى الباقيات مكية. وأضاف إلى ما ذكره الزركشى:

---

(١) من بلاغة ١٧٠ ــ ١ .

(٢) علوم ٢٧٨ .

(٣) سورة النساء ٦٥ .

(٤) دراسات ٩٦ .

﴿ تَا للَّه لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [1].

﴿ تَا للَّه لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [2].

﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [3].

وقال : ورد القسم بالقرآن فى خمسة مواضع ، كلها مسبوقة بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور :

﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ .

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ .

﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [4].

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ .

أمـــا أكـــثر أقسام القرآن انتشارا فهو القسم بآياته ومخلوقاته، وهى التى تُميِّز أسلوب القسم فيه بهذا الطابع الفريد به [5].

واقتصر د. محمد بكر إسماعيل على أن الله أقسم بذاته فى ستة مواضع فقط [6].

وتـــبين هذه الجولة أن أوفى الإحصاءات ما جاء به ابن أبى الإصبع وطنطاوى جوهرى، وأدقها ما جاء به د.يوسف خليف مع حرصه على إبانة المكى من المدنى مـــن الآيات، وأوجزها مع الوفاء ما جاء به ابن القيم . أما غيرهم فلم يحاولوا أن يكون الحصر شاملا .

---

(١) سورة النحل ٥٦ .

(٢) سورة النحل ٦٣ .

(٣) سورة سبأ ٣ .

(٤) سورتا الزخرف والدخان ١ ، ٢ .

(٥) دراســـــات ٩٦ ــ ٩ .

(٦) دراســـــات ٣٦٤ .

٥ ـ الحسية فى الأقسام المكية والمدنية

وكـــان من العلماء من تأثر بأقوال المستشرقين ، فوازن بين الأقسام فى العهد المكـــى والأقسام فى العهد المدنى. فزعم أن القسم المكى يكثر فيه القسم بالضحى والشمس ... إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخرا وانحطاطا، وأن القسم المدنى خلا من القسم بهذه المحسوسات.

فتصـــدى له د. محمد محمد أبو شهبة، ورماه بأن غرضه ـــ من هذا القول ـــ الزعم بأن القرآن متأثر بالبيئة ، ليصل إلى التشكيك فيه .

وأعلن أن هذا الكلام مردود بما يأتى :

١ – دعوى أن البيئة المكية ساذجة جاهلة لا ترقى إلى ما وراء الحس ، دعوى لم يقم عليها دليل ، ويكذبها الواقع والتاريخ الصحيح. فقد كان أهـــل مكة أوفى ذوقا، وأرهف شعورا ، وأذكى عقولا من أهل المدينة.

٢ – إن الله أقســـم ـــ فى القســـم المكى ـــ بالمعقول كما أقسم بالمحسوسات . فمن ذلك قسمه بالقرآن والملائكة والنفس الناطقة ...

٣ – إن القســـم بهـــذه الأشياء لا لكونها محسوسة، وإنما هو تنبيه إلى ما تشتمل عـــليه من إحكام فى الخلق والصنعة، وما تنطوى عليه من أسرار وعجائب، ونعم وآلاء [١].

وليـــت الشـــيخ اكتفى بالأمرين الأخيرين ، ولم يتعرض للموازنة بين مكة والمدينة، لأن الكثيرين لا يوافقونه على ما قال .

---

[١] المدخـــل ٢٤٧ .